

وفاق لا اختلاف فيه



وفاق

لا اختلاف فيه

وفاق لا اختلاف فيه بين ما يُوحى الكون به، وما يدعو القرآن إليه. نظام الكون - كما نرى - دقيقٌ ومُعَبَّرٌ عن غاية. والإنسان يتعلم من الكون دقة النظام، وتحقيق الغاية. وكلُّما تعمق الإنسان في جزئيات هذا الكون وما اشتمل عليه، أفاد علماء، وازداد فضلاً.

ونرى القرآن الكريم يُخاطب الإنسان - من خلال حديثه عن آيات الله في النفس وفي الكون - لتكون التذكرة به قائمة مع الإنسان حيث كان.

فيذا قرأنا هذه الآيات من سورة "الأعراف":

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾
 ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ (١)

(١) الأعراف: ٥٤ - ٥٦.

نستطيع أن نقف على هذه الحقائق، التي تُرينا مدى التوافق بين ما يُوحى به الكون، وما يدعو إليه القرآن الكريم.

وتلك هي الحقائق:

الحقيقة الأولى:

الحديث عن الربوبية في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾.

فربُّكم - أيها الناس - وربُّ الكونِ كُلِّه وأحدٌ، وهو ربُّ كلِّ شيء.
هو الذي خلقكم، والذين من قبلكم.

وهو الذي جعل لكم الأرض فراشاً، والسماء بناءً.

ولا تفاوتٌ أو تباين بين خلقٍ وخلقٍ.

بل يرى التعاون والتناسب والتوافق.

ولا يخفى ما في قوله: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ من فائدة في تعليم الإنسان،

وهو قادرٌ - سبحانه - أن يخلقها في لحظة واحدة.

الحقيقة الثانية:

أن هذه الربوبية تُدبر هذا الكون بصورة مرئية للإنسان، نافعة له.

﴿يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾.

ولا أحدٌ - في أيِّ مكانٍ كان - يغيب عنه تقلُّبُ الليل والنهار، وما

في ذلك من عبرة لأولي الأبصار.

﴿ يُغَشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ﴾ أي: يجعل الليل كالغشاء للنهار، فيغطي - بظلمته - ضياءه، كما يُغشي الليل بالنهار، فيذهب ظلمته.
﴿ يَطْلُبُهُ ﴾ طلباً ﴿ حَثِيثًا ﴾ مُسرِعاً، لا يفترُّ عنه بحال.
وفي ذلك - مع التذكير للإنسان - تعليم للإنسان، أيُّ تعليم، بأنَّ كلَّ شيءٍ مرتبطٌ بحكمته، موقوتٌ بوقته، لا يغيب عنه ولا يزيد.
الحقيقة الثالثة:

أنَّ الشمسَ والقمرَ والنجومَ - وهي ما هي في عظم شأنها، ويُعدُّ مكانها وقوتها - مُسَخَّرَةٌ بأمر ربِّها.
وفي ذلك إحياء للإنسان أن لا يتمردَّ على ما يُؤمر به، أو يُدعى إليه.
﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ﴾
وفي ذلك منفعة للإنسان، أي منفعة، وتعليم له أن يتجاوَبَ مع فطرة الكون في القيام بما خُلِقَ له - من عبادة ربِّه - طائِعاً غير مُكْرَه.
الحقيقة الرابعة:

هذا الشمول في قوله: ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ حقيقة لا يَبْدُ عنها شيءٌ له وحده - لا لأحدٍ غيره - الخلقُ والأمرُ.
وإليه وحده - سبحانه - لا إلى أحدٍ سواه - المرجعُ والمصيرُ.
وهذه الحقيقة تُعلِّمُ الإنسان - في جميع شئونه - أن يكون عبداً لله، لا لأحدٍ سواه؛ إذ لا ملجأَ منه إلا إليه.

﴿ وَالْأَرْضَ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتِ مَطْوِيَّاتٍ بِيَمِينِهِ ﴾ ⁽¹⁾ فَأَيْنَ الْمَفْرُوقُ؟

الحقيقة الخامسة:

ما تضمنه قوله: ﴿ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾

أي: كثرت بركته واتسعت.

وهذه الحقيقة موحية للإنسان أن يُقدِّرَ ذلك حقَّ قدره وأن يعلم أنه مغمورٌ بفيضٍ من نعمه وفضله، في أيِّ حال كان، في سرِّاءٍ أو ضرِّاءٍ، أو شدَّةٍ أو رخاءٍ؛ حتى يكون - في جميع أمره - راضياً عن ربه، تعاضماً شأنه، وتعالى قدره، ولا إله غيره ﴿ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾.

الحقيقة السادسة:

التوجُّه بالأمر إلى عبادته، في قوله: ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ أمرهم - سبحانه - بالدُّعاء. وقيد ذلك بكون الدَّاعي متضرِّعاً بدعائه، مُخْفِياً له.

والتَّضَرُّعُ: من الضَّرَاعَةِ، وهي الدُّلَّةُ، والخشوع، والاستكانة. والخُفْيَةُ: الإسرار بها؛ فذلك أدعى للإخلاص والبُعد عن الرِّياء.

﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾

أي: المُجَاوِزِينَ لما أمروا به، في الدعاء وفي كل شيء. فمَن جاوزَ ما

(1) الزمر: ٦٧.

أمره الله به - في شيء من الأشياء - فقد اعتدى، والله لا يحب المعتدين.

الحقيقة السابعة:

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾

بأي وجه من الوجوه، قليلاً كان أو كثيراً، مادياً كان الإفساد أو معنوياً؛ فإن الله - عزَّ وجلَّ - قد أصلح لنا الأرض من كل وجه، ونهانا أن نُفسدَ فيها بعد إصلاح، وأرانا كيف نُصلحُ ولا نُفسد، ونُحسنُ ولا نُسيء، بما أرسل من رسول، وأنزل من كتاب.

فإذا ظهر في الأرض فسادٌ فهو بما كسبت أيدي الناس.

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾⁽¹⁾

الحقيقة الثامنة:

ما تضمنه قوله تعالى: ﴿ وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾⁽²⁾ مما يجب أن يكون عليه الإنسان، من الخوف والرجاء؛ ليُحسنَ ولا يُسيء ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

والله قد كتب الإحسان على كل شيء، ولم يستثن من ذلك من شيء؛ لما يتضمَّنه الإحسانُ من تجرُّد، ومراقبة، وإخلاص، ومن تجويد وإتقان.

وقد سئل الرسول ﷺ عنه، في حديث جبريل عليه السلام فقال: « الإحسانُ

(1) فاطر: ٤٥.

أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ ﴿ (1)

واشتمال العمل على الأمرين - الإخلاص، والإتقان - هو السبيل لما يُرجى من حُسن المثوبة والجزاء.

﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ (2).

وهكذا يُخاطبُ الإنسانُ.

ويؤمَرُ بالعبادة، والدعاء، والإصلاح، والإحسان.

ويُنهَى عن الفساد، والاعتداء، والإساءة.

من خلال الحديث عن الكون، والإيحاء بدلالته

للإفادة منه. لا في معاش الإنسان ومتاعه فحسب، بل للإفادة منه في

اعتقاده واستقامته، وأداء أمانته التي حملها.

ترى ذلك في أخطر قضايا الاعتقاد شأناً، وهو (البعث) بعثُ الموتى

من قبورهم.

ترى الدليل على تحقق وقوعه يُساقُ في فطرة هادية مما يقع في حياة

الإنسان، دون تكلفٍ أو عُسْر.

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ

سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ

(1) مسلم: كتاب الإيمان.

(2) الكهف: ٣٠.

الْتَمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ (1)

يُذَكِّرُ النَّاسَ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ عَنْ طَرِيقٍ مَا يَقَعُ - دَائِمًا - فِي حَيَاتِهِمْ،
مِنْ إِنْزَالِ الْمَاءِ، وَإِحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا.

فَكَمَا نُخْرِجُ مِنَ الْأَرْضِ مَا كَانَ مَطْمُورًا فِيهَا مِنْ حَبٍّ، بِإِنْزَالِنَا
الْمَاءَ، فَتُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا. كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى مِنْ قُبُورِهِمْ بَعْدَ أَنْ
غُيِّبُوا فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ.

﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (2)

وهكذا نرى الوفاق بين ما يُوحى الكونُ به، وما يدعو القرآنُ إليه
من اعتقادٍ، أو استقامةٍ، أو عملٍ.

والإنسانُ المستبصرُ يفيد من الكونِ آياتٍ وآياتٍ وآياتٍ، تُحَقِّقُ لَهُ -
إِنْ هُوَ اسْتَبَصَرَ بِهَا - أَبْرَ الْخِصَالِ، وَأَكْرَمَ الصِّفَاتِ، فِي سَعْيِهِ وَعَمَلِهِ.
وهو يرى كُلَّ شَيْءٍ يُوَدِّي مَا خُلِقَ لَهُ، فِي انْتِظَامٍ لَا تَفَاوُتَ وَلَا
اِخْتِلَافَ فِيهِ.

يرى الشمسُ تطلعُ عليه، ثم تغيبُ في وقتٍ محددٍ، دونَ سبقٍ أو
تأخيرٍ، فيأتيه الليلُ والنهارُ - لسُكْنَاهُ وَمَعَاشِهِ - آيَةٌ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ، مُبْصِرَةٌ
مُذَكِّرَةٌ، يَتَعَلَّمُ مِنْهَا مَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ فِي آدَاءِ عَمَلِهِ، وَتَحْقِيقِ غَايَتِهِ
لَا خُلْفَ فِي مَوْعِدٍ..

(1) الأعراف: ٥٧.

(2) فصلت: ٣٩.

لا خَلَلَ فِي نِظَامٍ..

لا عَوْجَ وَلَا مَيْلَ فِي اتِّبَاعِ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ اللَّيْلُ نَسَلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٢٧﴾ وَالشَّمْسُ
تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ۚ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْتَهُ مَنَازِلَ
حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٢٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا
اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (1)

هذه الحركة الكونية الحية المتجددة، التي تتفاعل في حياة الإنسان دون توقف أو انقطاع، هي زادٌ متَّصل للإنسان، أي زاد.

لا في معاشه ومتاعه فحسب، بل في إيمانه واستقامته وبقينه. وأنت تراها تُساق إليك في آيات تُتلى، تتسق مع كل ما تراه من آيات ربِّك، في الآفاق وفي الأنفس.

فلا ينعزل الإنسان بما يقرأ من قرآن، بل يَسْبُحُ بِنُورِهِ فِي أَجْوَاءِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ.

وهو إن تَأَبَّرَ عَلَى تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ فَحَفِظْهُ، لَمْ تَقَعْ عَيْنُهُ عَلَى شَيْءٍ فِي هَذَا الْكُونِ إِلَّا وَتَذَكَّرَ بِهِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ فِي الْقُرْآنِ.

إِنَّ حَرَكَةَ الْكُونِ - لَدَى أُولِي الْأَلْبَابِ - دَاعِيَةٌ إِلَى مَا دَعَى إِلَيْهِ الْقُرْآنُ وَبَصَّرَ وَأَنْذَرَ.

(1) يس: ٢٧-٤٠.

وما أجملَ أن ترى بلاغةَ القرآن في آياته مقروءة في آفاق الكون وصفحاته.

تقرأ في القرآن:

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ (٧٨) (١)

فترى ذلك في صفحة الكون، وأنت تستجيبُ لأمر ربك. يتنفسُ الصبحُ، فتري فيه دلالة ما قرأت في القرآن عن الفجرِ ومن يشهده. يخبرك القرآن، فتري في الواقع خبره.

فلا ينفك الإنسان عن حديثه إليه، من فجرِ يومه إلى غسقِ ليله. حديثٌ متواصل، تقشعر منه جلودٌ، وتؤوبُ نفوس. ويجد الإنسانُ متعته وخشيته، وزينته وحقيقته، في انساقِ فطري، لا تعارضَ فيه ولا تفاوت، ولا اختلافَ ولا تناقض. وذلك حين تُعرفُ مقاصدُ القرآن، وتؤخذُ هدايته. وحين تُعرفُ لغةَ الكون، وتُدركُ حقيقته.

عندئذٍ تتحققُ الغايةُ التي من أجلها خُلِقَ الكونُ، وخُلِقَ الإنسان. ويهتدي الإنسانُ إلى الصراطِ المستقيم، الذي من أجله أُرسِلَ الرسولُ، وحُفظَ القرآن.

وتقوم بالإنسان - وهو يتفاعل مع الكون - حضارةٌ كاملةٌ، تُصان

(1) الإسراء: ٧٨.

فيها الكرامة، وتُحفظ الحقوق، وتُؤدَّى الواجبات.
ولن يكون ذلك إلا باستلهاهم ما في الكون من دلالات، هي أعظمُ
وأبقى من أن تكونَ مجردَ زينةٍ ذاهيةٍ أو متاع.
وتدبرُ ما في القرآن من آيات هي لمصلحة الإنسان في جميع مراحلها،
في متاعه ومعاشه، وعاقبته ومصيره؛ حتى لا يُؤخذ الإنسان بظاهر الحياة
الدنيا، وينسى عاقبتها، أو يُشغَلَ بزینتها عن حقيقتها وغايتها.
من هنا كان اتِّساقُ القرآن والكون في مخاطبة الإنسان لغايةٍ
واحدة، هي مصلحة الإنسان في أن يُحقق ما خُلق له في سعيه وعمله، وفي
علاقته بغيره.

وذلك حين يعرف حكمةَ خَلْقِهِ، وغايةَ وجوده.
ومن تدبَّرَ فأحسن التدبر، عَلِمَ أَنَّ هَذِهِ الْغَايَةَ يُجْمَلُهَا قَوْلُ رَبِّهِ:
﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥١﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ
وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿٥٢﴾ ﴾⁽¹⁾

وذلك ما يُوحى الكونُ به، وكلُّ شيءٍ فيه مُسَبَّحٌ بحمد ربِّه.
وما يدعو القرآنُ إليه، وهو يهدي - في كلِّ شأنٍ - للتي هي أقوم.
وهذه الغاية - والعملُ لها - هي التي تُحقق الضوابط التي يُحسن
الإنسان بها ولا يُسئ، ويُصلح ولا يُفسد.
وهي التي يُصانُ بها الفهم عن العبث، والاعتقاد عن الباطل.

(1) الذاريات: ٥٦، ٥٧.

والعَبَثُ يكون عندما يقفُ الإنسانُ عند دُنياه، ولا يزيد.

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (١)

والباطلُ اعتقادٌ فاسدٌ، يُنسى صاحبه يومَ الحساب، ويقودُ إلى سُوءِ

العاقبةِ والمصيرِ.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ (٢)

وكلاهما - العَبَثُ والباطلُ - يلازمهما الهوى المضلُّ، والأنانية

الجشعة، والكبرُ الأبله، والظلمُ المفسد.

يلازمهما ما يُفسد علاقة الإنسان بأخيه، وقد قطعت علاقته بربه.

﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُونَ ﴾ (٣)

وهؤلاء لم يأخذوا من الكون دلالاته وهم يعلمون ظاهراً من الحياة

الدنيا، وإنما أخذوا متاعه وزينته.

ودلالة الكون مُعبّرة عن خالقٍ يُعبّدُ ولا يُجحد. مُعبّرة عن رحمةٍ

واسعة، ونعمة سابغة ظاهرة وباطنة.

﴿ وَعَدَّ اللَّهُ ۗ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ۗ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(1) المؤمنون: ١١٥.

(2) ص: ٢٧.

(3) المؤمنون: ٧٤.

يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ (1)

فلنر القرآن في آيات الله، في الآفاق وفي الأنفس.

لثوقن ونعمل بما نزل من الحق.

ولنتدبر أمر الكون في آيات بيئات من الهدى والفرقان.

لنفرق بين الحق والباطل، فنحسن - في كل شيء - ولا نسئ.

وسنرى القرآن معنا إذا تنفس الصبح، أو عسعس الليل.

سنرى القرآن يعلمنا كيف نُسبح بحمد الله حين نُصبح وحين

نُمسي

سنراه معنا إذا أنزل الله لنا من السماء ماءً، وأخرج به ما شاء من

الثمرات رزقاً لنا.

يُعلمنا - ونحن نرى آثار رحمة الله بنا - ماذا نقول وماذا نعمل؛ حتى

لا تتحول نعمة الله في أيدينا - بكفرها - إلى نقم علينا.

﴿ وَإِذْ تَأَذَّرَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي

لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ (2)

سنرى القرآن معنا - بهدايته - حيث كنا.

إذا سرتنا في البر، أو ركبنا في البحر، أو صعدنا في الجو.

سنراه معنا في ضيق أو سعة، في سراء أو ضراء، في شدة أو رخاء.

(1) الروم: ٦، ٧.

(2) إبراهيم: ٧.

سنراه في شئوننا كلها، وفي أحداث حياتنا: إذا استقبلنا مولوداً، أو شيعتنا مفقوداً.

سنراه - بهدايته - يعلمنا ما يجب أن نكون عليه في أخص ما تكته صدورنا، وما نُعَلِّمُه.

سنراه في هذا الكون إذا هبَّت الرِّيحُ أو سَكَنَتْ.

سنراه في البحار، أو الجبال، أو السُّحَابِ.

سنراه في طَيْرٍ يطير في السماء، أو في سَابِحٍ يسبح في الماء.

سنراه في حديثِ نَمَلَةٍ، أو تَدْبِيرِ نُحْلَةٍ.

سنراه بهدايته وعبرته وموعظته.

نراه في الأنعام ونحن نُسْقَى مِمَّا فِي بُطُونِهَا مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ.

كما نراه في تَقَلُّبِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.

نراه في رَكَعَاتِ السَّاجِدِينَ، وَاسْتِغْفَارِ الْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ.

فَمَا مِنْ أَمْرٍ إِلَّا وَلِلْقُرْآنِ فِيهِ كَلِمَةٌ.

وَمَا مِنْ شَأْنٍ إِلَّا وَلَهُ فِيهِ تَبَصُّرَةٌ وَمَوْعِظَةٌ.

وَآيَاتُ اللَّهِ - فِي الْآفَاقِ وَفِي الْأَنْفُسِ - دَائِمَةٌ الْخَطَابُ لِلْإِنْسَانِ بِمَا

يَخَاطِبُهُ بِهِ الْقُرْآنُ.

فَلَا يَنْفَكُ الْإِنْسَانُ - أَبَدًا - مِنْ حَدِيثٍ إِلَيْهِ يُوقِظُهُ مِنْ غَفْلَةٍ، وَيَحْفَظُهُ

مِنْ نَسْيَانٍ.

حَدِيثِ نَفْسِهِ إِلَيْهِ وَهِيَ تُخَاطِبُهُ بِمَا فِيهَا مِنْ آيَاتٍ يَسْتَبْصِرُ بِهَا.

تُخاطبه دقات قلبه، وآياتُ سَمِعِه وبصره، وبُنيانُ جسده.

﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (1)

لا ينفكُ الإنسانُ من مخاطبة الكون، لا لكي يعرف ربَّه معرفةً شعُور وعاطفة، بل لكي يعرفه معرفةً يقين وعمل، وسعي وحركة، واستقامة وخشية.

معرفة تُرى نتائجها في جميع أمره.

معرفة تُستلهم من نظام الكون وتناسقه، والإفادة منه، في تعاونٍ لا تناقضٍ فيه، وتجاوبٍ لا خلافٍ معه.

لذا نرى القرآنَ كثيراً ما يخاطبنا من خلال حديثه عن الكون؛ ليظل الإنسانُ - دائماً - موقظاً بالتذكرة، مُخاطباً بالتبصرة.

وهو يرى الليلَ والنهار، والشمسَ والقمر، والأرضَ والسماء.

يرى كل ذلك ليس منفصلاً عن منفعته، أو معزولاً عن عطائه.

وإنما يراه بتأثيره وأثره، وعطائه ونفعه بإذن ربِّه.

فتكون التبصرة فطرية، لا تكلفُ فيها.

والموعظة حسنة، لا إساءة معها.

والدعوة إلى الله حكيمة، لا عُسرَ في فهمها وتقبلها.

وذلك منهجُ القرآن في الدعوة إلى الله.

يُخاطبك بما هو قائمٌ فيك، أو مُتَّصِلٌ بك.

من نفسك، أو من الكون، الذي لك منه قرارٌ وبناءٌ، ورزقٌ وعطاءٌ،

وحلَقٌ وحياة.

(1) الذاريات: ٢١.

وأنت فيه - بعد موتك - وديعةٌ مُسْتَرَدَّةٌ حين يبعثك الله.
﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾. (1)
